بروفايل شخصية

الشهيد القائد
عماد مغنية

الشهيد القائد
عماد مغنية

سيرة الشهيد القائد الحاج عماد فايز مغنية "رضوان" (1962-2008)

يُمثّل اسم "عماد مغنية" أكثر من مجرد قائد عسكري؛ إنه يجسد مرحلة كاملة من تاريخ الصراع في الشرق الأوسط. طارده 42 جهاز استخبارات عالمي لأكثر من عقدين، وهو الذي حوّل مجموعة من المقاتلين المؤمنين إلى قوة عسكرية أرعبت جيشًا وُصف يومًا بأنه "لا يُقهر". الحاج رضوان لم يكن مجرد مُخطط عمليات، بل كان مهندسًا استراتيجيًا، ومُنظّرًا أمنيًا، وقائدًا روحيًا، وأبًا حنونًا، عاش حياة متعددة الأبعاد، ظلت تفاصيلها طي الكتمان حتى بعد استشهاده. هذا الملف الشامل يستعرض مسيرته الفريدة التي انطلقت من حي متواضع في الضاحية الجنوبية لبيروت لتصل إلى تغيير وجه المنطقة بأسرها.

الجذور والنشأة

وُلد عماد فايز مغنية في 25 كانون الثاني/يناير 1962 في الشياح الكائنة في شمال الضاحية الجنوبية من أصول جنوبية تعود لقرية طيردبا، إحدى حاضرات جبل عامل، خزان العلماء والمجاهدين الشيعة تاريخيًا. نشأ في كنف عائلة متدينة ومحافظة، فوالده الحاج فايز مغنية ووالدته السيدة آمنة سلامة (أم عماد)، التي استحقت فيما بعد لقب "أم المقاومة"، غرسا فيه وفي أخويه الشهيدين (جهاد وفؤاد) وأخواته حب الدين والالتزام بقضايا الأمة. لم تكن البيئة المحيطة عادية؛ فقد كان الشيعة في لبنان يعانون من الحرمان الاقتصادي والتهميش السياسي، مما خلق لديه وعيًا مبكرًا بالظلم وضرورة مواجهته.

عنصر آخر ساهم في صناعة ذلك القائد وهو الغيب الذي حرسه ورعاه من الولادة حتى الشهادة. فقد تدخلت يد الغيب في حفظ الرضيع عماد الذي لم يكن قد تجاوز الشهرين من عمره، وتروي والدته أنّه عندما كان عمره 40 يومًا فقط، تعرضت العائلة لحادث سير مروع في منطقة المصيلح، حيث انحرفت السيارة التي تقلهم عن الطريق نتيجة لانفجار أحد اطاراتها وبعد لحظات من خروجهم منها اشتعلت السيارة بالكامل. اعتبر جده " العارف" أن نجاة العائلة من الحادثة كانت ببركة هذا الطفل الرضيع، قائلاً: "تقدير الله في هذا اليوم أن يبقى هذا الطفل حيًا؛ كي تحصل على يده أمور عظيمة في المستقبل".

ملامح القائد

برزت شخصية عماد العملية منذ نعومة أظافره. كان قليل الكلام، لكنه شديد الفعالية. لم يكن كباقي أقرانه منشغلًا باللعب واللهو، بل كان يبحث عن هدف ليعمل من أجله.

أ. في سن الثانية عشرة، لاحظ أن مسجد قريتهم طير دبا أصبح قديماً وحيطانه بالية فسعى مع مجموعة من رفاقه إلى جمع التبرعات لطلاء المسجد وتبييضه لكن ما تمّ جمعه لم يكف، لم يستسلم. ذهب بمفرده وعمل لمدة خمسة أيام شاقة في قطف البرتقال، حتى تمكّن من تأمين المبلغ كاملاً لشراء مواد الطلاء. ثم عاد إلى أصدقائه وطلب مساعدتهم في العمل، دون أن يخبرهم عن المشقة التي تحملها لتأمين باقي المال. كانت هذه الحادثة تجسيدًا مبكرًا لمنهجيته في الحياة: المبادرة، العمل بصمت، وتحقيق الهدف بأي وسيلة شرعية متاحة.

التكوين الفكري والروحي

تشكل وعي عماد الطفل والحدث من خلال ثلاثة روافد أساسية حددت مساره الجهادي:

1. **عقيدة كربلاء:** لم تكن ثورة الإمام الحسين (ع) بالنسبة له مجرد ذكرى سنوية للحزن، بل كانت "مسألة عقائدية وأيديولوجية". غاص في دراسة أبعادها الفلسفية والثورية، باحثًا عن إجابات لأسئلة الوجود والظلم والشهادة. هذا الفهم العميق حوّل القضية الحسينية إلى محرك دائم لرفض الذل والاستعداد للتضحية.
2. **مدرسة الإمام موسى الصدر والدكتور شمران:** تأثّر الحاج عماد بشخصية الإمام الصدر الكاريزمية وحركته الهادفة لرفع الحرمان عن الشيعة. شارك في الدورات العسكرية التي كان يقيمها الإمام، وبقي اختطافه جرحًا نازفًا في قلبه حيث استمر في متابعة قضيته. كما حضر دروس الدكتور مصطفى شمران، وتأثر بعقليته التي جمعت بين العلم والإيمان والجهاد.
3. **الإمام الخميني (قدس):** شكل انتصار الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني (قده) عام 1979 المنعطف الأكبر في حياة الحاج عماد. وجد في هذه الثورة التجسيد العملي لكل الأفكار التي كان يؤمن بها. أصبح من أشد المروجين لها في لبنان، فكان صاحب فكرة طباعة صور الإمام على القمصان، والتي انتشرت كالنار في الهشيم بين الشباب المؤمن. في عام 1983، تحقق حلمه بلقاء الإمام الذي احتضنه وقال له جملة شكلت له وسام شرف أبدي:"أنت ولدي أيضًا".

انتماء عقائدي واستقلالية مبكرة

مع اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية عام 1975، انخرط الحاج عماد في حماية منطقته التي كانت تبعد عشرات الامتار عن مكان ارتكاب المجزرة الأولى في الحرب "بوسطة عين الرمانة". لكن طموحه كان أكبر من مجرد ردات فعل دفاعية. سعى مع رفاقه "الشباب المؤمن" للحصول على تدريب عسكري منظّم. لجأوا إلى حركة "فتح" عبر الراحل أنيس النقاش، لكن عماد وضع شرطًا أساسيًا أدهش محدثيه:"نريد أن نتعلم على استخدام الأسلحة... لكننا نريد أن نبقى خارج إطار التنظيم." هذه الرغبة في الحفاظ على الهوية العقائدية والاستقلالية التنظيمية منذ سن المراهقة كشفت عن بصيرة استراتيجية ورؤية بعيدة المدى.

حي على الجهاد

كان الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982 هو اللحظة التي تحول فيها الشاب الواعد خلال عقد من الزمن إلى القائد الفعلي الذي ينتظره التاريخ. فبينما كانت الجيوش العربية والفصائل الفلسطينية تتراجع، كان الحاج عماد يرى في هذه الهزيمة فرصة لولادة مقاومة حقيقية وأصيلة.

في خريف 1982، وضع مع رفاقه النواة الأولى للجهازين العسكري والأمني لحزب الله الذي تطلب إخراجه إلى الوجود ثلاثة اعوام. قبل إشهاره في 16-2-1985 في مسجد لا يبعد أمتاراً عن مكان نشأته. تولى الحاج عماد في البداية قيادة الفرع الأمني، ثم دُمج الفرعان بعد منتصف التسعينات تحت قيادته المباشرة. لم يكن عمله مجرد تجميع مقاتلين، بل كان بناء منظومة متكاملة تستند إلى فلسفة أمنية فريدة. لاحظ الحاج عماد السهولة التي تمكنت بها أجهزة الاستخبارات من اختراق الفصائل الفلسطينية بسبب اعتمادها على سياسة "الباب المفتوح" للتجنيد. لذا، بنى جهاز أمن حزب الله على مبدأ الانتقاء الدقيق والمراقبة الصارمة والولاء العقائدي المطلق.

أسس نظامًا وقائيًا داخليًا معقدًا يعتمد على "التقسيم المعرفي"، حيث لا يعرف أي فرد إلا ما هو ضروري لمهمته. هذا النظام جعل اختراق حزب الله في الثمانينيات والتسعينيات مهمة شبه مستحيلة.

ففي بلد مثل لبنان يوصف بأنه "جنة الجواسيس"، كان بناء مثل هذا التنظيم المحكم عملًا استراتيجيًا خارقًا، وأحد أهم إنجازات الحاج عماد.

إعادة تعريف الحرب

لم يكتفِ الحاج عماد مغنية بالدفاع، بل انتقل إلى الهجوم النوعي الذي غيّر قواعد الاشتباك وأعاد تعريف الحرب غير المتكافئة.

ـ عملية الشهيد أحمد قصير (1982): كانت هذه العملية "أم العمليات الاستشهادية". خطّط لها الحاج عماد شخصيًا برفقة القائد الجهادي الكبير الشهيد الحاج علي كركي (ابو الفضل) وآخرين لتكون ردًا مزلزلًا على الاحتلال. العملية التي أدّت إلى تدمير مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي في صور ومقتل 151 ضابطًا وجنديًا لم تكن مجرد خسارة عسكرية للعدو، بل كانت صدمة نفسية أثبتت أن الاحتلال لن يكون نزهة.

ـ كمين أنصارية (1997) "حرب العقول": تُعتبر هذه العملية تحفة استخباراتية وعسكرية. بالتعاون مع الشهيد السيد مصطفى بدر الدين (ذو الفقار) والشهيد حسين هزيمة (الحاج مرتضى)، تمّ استدراج وحدة الكوماندوس البحرية الإسرائيلية (شييطيت 13) إلى كمين مميت. لم تكن العبقرية في الكمين العسكري فقط، بل في الحرب النفسية التي تلته. فبعد أن حاول العدو إخفاء حجم خسائره، نشرت المقاومة صورًا لأشلاء الجنود، مما فضح كذب القيادة الإسرائيلية وأجبرها على مفاوضات مهينة لاستعادتها مقابل تحرير أسرى وشهداء.

ـ تحرير الجنوب (2000) - تتويج عقدين من الجهاد: كان الحاج رضوان هو القائد الميداني لعمليات التحرير. خِطَطِه للعمليات الأخيرة، مثل تنفيذ حكم الاعدام بقائد الفوج الغربي ونائب لحد العميل عقل هاشم وعملية "عرمتى" النوعية التي قصمت ظهر جيش الاحتلال وما تبقى من جيش العميل لحد، جعل العدو يقصر فترة احتلاله شهرين قبل أن يفر هائماً لا يلوي على شيء. بعد الاندحار كانت بصمة الحاج رضوان في إشهار التحرير في كل مكان، بدءاً

من الاشراف على مهرجان النصر في بنت جبيل في 26-5-2000 وحتى التهديد للعدو باستخدام الكاتيوشا لضرب قوافله المنسحبة ردًا على الغارات التي استهدفت المدنيين في العديسة وبلاط وصولًا إلى نسف المواقع التي أخلاها العدو بعد افراغها مما تحتويه من مغانم هائلة من السلاح والذخيرة التي تركها العدو لعملائه تحضيراً لفتنة كان يخطط لها جنرالاته بعد اندحار جيشهم من الشريط الحدودي المحتل. ومن أهم البصمات التي عكست إنسانية ووطنية المقاومة إصدار الحاج رضوان تعليمات صارمة بحماية المسيحيين في القرى المحررة، سيما أهالي القليعة ودبل وعين ابل، مؤكدًا أنّ المعركة هي مع المحتل وعملائه، لا مع أبناء الوطن من الطوائف الأخرى.

ـ **قائد حرب تموز (الوعد الصادق 2006):** كانت حرب 2006 هي الاختبار الأكبر والأصعب، وهي المعركة التي تجلت فيها عبقرية الحاج رضوان بأبهى صورها.

ب. **تخطيط عملية الأسر:** أشرف شخصيًا على عملية "الوعد الصادق" لأسر جنديين إسرائيليين بهدف تحرير الأسرى، وهو وعد قطعه سيد شهداء الأمة السيد حسن نصر الله (قدس).

ت. **إدارة الحرب بثقة ويقين:** في الوقت الذي ساد فيه القلق، كان الحاج عماد هادئًا وواثقًا من النصر. كلماته الأولى بعد اندلاع الحرب كانت:"أرى الموت في عيونهم، والهزيمة واضحة فيها... إسرائيل ستُهزم في هذه الحرب".

ث. **قيادة معركة عيتا الشعب:** أدار الحاج رضوان شخصيًا هذه المعركة الملحمية التي تحولت رمزًا ومعبرًا إلزاميًا للصمود الأسطوري منذ الساعات الأولى للحرب. استدرج ألوية النخبة الإسرائيلية (المظليين) بعد عملية الأسر إلى كمائن مُعدة سلفًا، وحوّل محيط القرية وأزقتها المتاخمة لمواقع ومستوطنات العدو إلى مقبرة لدبابات الميركافا وجنود الاحتلال وتكرر ذلك في بنت جبيل وسهل الخيام ووادي الحجير.

ج. **صياغة استراتيجية الحرب:** اعتمد على تكتيكات مبتكرة شلت قدرات العدو: خداع العدو عن أماكن تركيز القدرة والاستفادة من شبكة أنفاق واتصالات حصينة، ومفاجأته بصواريخ مضادة للدروع متطورة (كورنيت)، وقدرة صاروخية دقيقة فاجأت العدو باستهداف البارجة "ساعر 5" وضرب العمق الإسرائيلي حتى حيفا وما بعد حيفا واسقاط طائرات يسعور وآباتشي وتفعيل منظومة معلومات استخبارية يقظة. لقد أدار حربًا أثبتت للعالم أن المقاومة لم تعد مجرد مجموعات فدائية، بل قوة منظمة قادرة على خوض حرب حديثة وتحقيق نصر استراتيجي.

شخصية متعددة الأبعاد

خلف صورة القائد العسكري الصارم، كان هناك إنسان استثنائي يجمع بين صفات متناقضة جعلته شخصية فريدة ومحبوبة.

ـ **التواضع ونكران الذات:** كان الحاج رضوان يعيش كأبسط المقاومين. يروي أحد رفاقه كيف جاء كضيف إلى أحد المواقع الأمامية، وخضع كالبقية عندما حان دوره بتحضير الطعام وغسل الأواني منفذًا الأوامر بكل سرور. لم يعرف المقاومون إلا بعد أيام أنّ هذا الضيف المطيع هو قائدهم الأعلى، الحاج رضوان. كان يرفض أي معاملة خاصة له أو لعائلته، مؤمنًا بأن الجميع سواسية في درب الجهاد.

ـ الأبوة الحانية في ظل المطاردة: تروي ابنته فاطمة كيف كان والدها الغائب الحاضر. فعلى الرغم من ظروفه الأمنية القاسية، كان يصر على متابعة دراستهم، ويسهر معها ليلة الامتحان ليشرح لها مادة كاملة، ويأخذهم في نزهات قصيرة كانت بمثابة كنز لهم. قصتها عن رميه الحجارة على نافذة غرفتها لأنه لم يستطع الدخول، تُلخص علاقته بأسرته: حب كبير يتجاوز كل الحواجز الأمنية.

ـ الذكاء العملي والإبداع: لم يكن يعترف بكلمة "مستحيل". كان يعلّم مقاتليه أن يفكروا خارج الصندوق، وأن يستخدموا أبسط الأدوات للتغلب على أصعب الظروف. كان يؤمن بأن "العدو الإسرائيلي أكبر أستاذ لنا"، ويتعلم باستمرار من تكتيكاته ونقاط ضعفه.

ـ الحس الإعلامي والبصيرة الثقافية: أدرك مبكرًا أنّ الحرب ليست فقط بالرصاص، بل بالصورة والكلمة. طور الإعلام الحربي، وأصر على توثيق العمليات، مدركًا أنّ عرض النصر لا يقل أهمية عن تحقيقه. كما كانت لديه رؤية ثقافية واسعة، حيث شجع على استخدام العلم اللبناني إلى جانب راية المقاومة، وطلب بث الأناشيد الفلسطينية القديمة، مؤكدًا على البعد الوطني والعروبي للمقاومة.

ـ الإيمان المطلق والولاية: كانت علاقته بولاية الفقيه، المتمثلة بالإمام الخامنئي، علاقة الجندي بقائده والمأموم بإمامه. لم تكن مجرد طاعة سياسية، بل كانت التزامًا شرعيًا وعقائديًا عميقًا. كان يرى أن سر النصر يكمن في هذا الاتباع، وكان يقول: "نحن لا شيء مقابل الولاية. المهم هو ماذا تقول الولاية".

الشهادة والإرث الخالد

بعد مسيرة حافلة بالجهاد والانتصارات، وفي 12 شباط/فبراير 2008، ارتقى الحاج عماد مغنية شهيدًا في انفجار سيارة مفخخة في حي كفرسوسة بدمشق، في عملية معقدة شارك فيها الموساد الإسرائيلي والـ CIA.

لم يكن استشهاد الحاج رضوان نهاية، بل كان بداية لمرحلة جديدة. إرثه لم يقتصر على الانتصارات العسكرية، بل تجاوزها إلى:

1. **تحطيم أسطورة الجيش الذي لا يُقهر:** أثبت عماد مغنية أنّ الإرادة والإيمان والتخطيط السليم يمكن أن تهزم أعتى الجيوش.
2. **تأسيس مدرسة عسكرية وأمنية فريدة:** ترك خلفه منظومة عسكرية وأمنية قادرة على الاستمرار والتطور، وهو ما ظهر جليًا في أداء المقاومة بعد استشهاده.
3. **ترسيخ معادلة الردع:** بفضل استراتيجيته، امتنعت "إسرائيل" عن شن الحرب على لبنان لأكثر من عقد ونصف من الزمن، وبسببها يجري قادة العدو السياسيون والأمنيون حسابات معقدة ومكلفة، قبل الشروع بأي عدوان جديد.
4. **مصدر إلهام عالمي:** أصبحت سيرة عماد مغنية وتكتيكاته العسكرية تُدرّس لحركات التحرر حول العالم، وتحولت قصته إلى مصدر إلهام لكل حركات التحرر والمقاومة ضد الظلم والاستكبار.

في الظل عاش، ومن رحم الظل نسج نورًا أبهر العالم. لم يكن الحاج عماد مغنية مجرد اسم عابر في سجلات الحروب، بل كان حكاية كاملة، كتبت سطورها الأولى في تراب قرية عاملية، وختمت فصولها بدم أزهر في جوار أميرة الشام السيدة زينب عليها السلام، ليروي أرض الأمة كلها عزةً واقتداراً.

كان "الحاج رضوان" العقل الاستراتيجي الذي خطط لـ "حرب العقول" وأنجز قطعة فريدة في الامن والعسكر وُسِمَت باسمه في أنصارية، كان مهندسًا من طراز نادر نحت من صخر المستحيل معادلات الردع الجديدة، وبنى من إيمان حفنة من الرجال صرحًا شامخًا للمقاومة. حوّل الهزيمة عام 1982 إلى فرصة، والضعف إلى نقطة انطلاق، وعلّم أمةً كاملة أنّ القوة ليست في العدد والعتاد، بل في الإيمان والعقل والإرادة التي لا تلين. كان يرى الهزيمة في عيون العدو قبل أن تبدأ المعركة، لأنه كان يقرأ ما وراء المشهد، ويفهم أن بيت العنكبوت لا يمكن أن يصمد أمام عاصفة الحق.

حين سقط جسده، لم تكن دماؤه نهاية الحكاية، بل كانت مدادًا لكتابة فصولها التالية. ترك خلفه مدرسة كاملة في الجهاد والتخطيط، وترك "أشباحًا" يسيرون على دربه، يحملون فكره وروحه، ويذكرون العدو في كل لحظة أنّ "الحاج رضوان" لم يرحل، بل تحوّل من قائد واحد إلى آلاف القادة.